وليد الخالدي: تحية

بيان نويهض الحوت

وليد الخالدي المؤرخ والإنسان

أعظم الكتّاب والمؤرخين منزلة هم الذين يفرضون احترامهم ليس على أبناء شعوبهم أو مؤيدي عقائدهم وأفكارهم فحسب، بل على خصومهم وأعدائهم على السواء. ومن أصحاب المنزلة الأولى هؤلاء المؤرخ الفلسطيني وليد الخالدي.

هو من أبناء الجيل الذي أكرمته الحياة بنعمة العيش على أرض الوطن قبل الشتات. هناك في القدس وُلد، وهناك عاش طفولته وشبابه الأول. وكانت دراسته الجامعية في بريطانيا، حيث درس الفلسفة والعلوم الإسلامية، وتخرّج من جامعتَي لندن وأكسفورد سنة ١٩٥١. وابتدأ التدريس الجامعي في السنة نفسها، في جامعة أكسفورد، كما بدأ ينشر أبحاثه في الموسوعات العلمية، وكان بحثه الأول عن المتصوف الكبير محيي الدين بن عربي.

غير أن القدر كان له ولأمته بالمرصاد، يوم كان العدوان الثلاثي على مصر، في أواخر تشرين الأول / أكتوبر ١٩٥٦، فكان قراره سريعاً وحاسماً بالاستقالة احتجاجاً على مشاركة بريطانيا في العدوان، فغادر البلاد وعاد إلى الوطن العربي حيث استقر في بيروت، وعمل أستاذاً في الجامعة الأميركية، في قسم العلوم السياسية، غير أنه انتقل إلى الولايات المتحدة ليعمل في جامعة هارفرد مدة عامين في السبعينيات، ثم عاد إليها مرة أُخرى سنة ١٩٨٢، حيث استقر في بوسطن، واستمر يعمل في حقل التعليم والأبحاث في أكثر من جامعة أميركية، حتى تقاعد سنة ١٩٩٧ وهو في هارفرد.

ثلاثة أعمال رئيسية شغلت الخالدي في حياته، أولها التعليم الجامعي؛ وثانيها مؤسسة الدراسات الفلسطينية التي كان أحد مؤسسيها الأوائل في بيروت، فكان أمين السرّ فيها منذ نشأتها، سنة ١٩٦٣، ولا يزال حتى يومنا هذا. والمؤسسة غنية عن أي

تعريف، لكنه يجدر القول إن من أسباب نجاحها أمين سرّها الذي يتابع مشاريعها بزياراته المتكررة، وباطلاعه المتواصل على مشاريعها، وبإشرافه الشخصي على العديد منها؛ وثالث أعماله وأحبها إلى قلبه الكتابة، فهو صاحب القلم الذي لم يهدأ منذ أكثر من ستين عاماً.

القسم الأكبر من كتابات الخالدي يتناول القضية الفلسطينية والصراع العربي ـ الإسرائيلي، غير أنه كتب بتواصل في عدد من الموضوعات الأُخرى، منها الفكر والفلسفة الإسلامية، والقومية العربية، والناصرية، والفكر الصهيوني، والمؤسسات الصهيونية، والشؤون العربية السياسية، والشؤون الشرق أوسطية، والقضايا العالمية. ونُشرت معظم مؤلفاته ودراساته بالعربية أو الإنجليزية أو باللغتين، كما نُشر بعضها بالفرنسية والإسبانية.

بعضٌ من نتاج القلم الخالدي موضوعنا في هذا البحث، إنه النتاج الذي يشمل القضية الفلسطينية، والمخططات الصهيونية العدوانية في فلسطين، والحرب العربية ـ الإسرائيلية الأولى. ونبتدئ بحثنا في البند الأول بنهج المؤرخ الخالدي، وأوجه الشبه بينه وبين المؤرخ الأول هيرودوتُس؛ ثم نتوقف في أربع محطات تالية، ما بين البندين الثاني والخامس، لمعالجة فلسطين شعباً وأرضاً ونكبةً، وما تعرّض له شعبها من الافتراءات الصهيونية، وذلك من خلال مؤلفات المؤرخ ومقالاته، مختارين منها الأبرز والأعمق أثراً والأوسع شهرة، مع الحرص على اختيار مقتبسات متعددة للمؤرخ الكبير يظهر من خلالها فكره وتحليله وأسلوبه؛ أمّا البند السادس فهو للجهد الكبير والمتميز للخالدي في ميدان "النهج التوثيقي" الذي نعتبره فارسه الأول. ثم نتوقف في البند السابع والأخير مع الخالدي الإنسان.

I ـ عودة الى هيرودوتُس

قبل أن أبدأ بحثي، أود أن أتوقف عند المؤرخ اليوناني الكبير، الذي كان أول من أطلق اسم فلسطين، على الساحل.

هيرودوتُس، مؤرخ اليونان الأول، الذي قام في القرن الخامس ق.م. برحلاته إلى آسيا الصغرى وبلاد الشام ومنها ساحل فلسطين، مسجّلاً ما يسمعه من السكان عن أحوالهم وتاريخهم، وقد ورد في كتب التاريخ المعاصرة أنه أول مَن أطلق اسم فلسطين على الساحل، في كتابه الشهير الذي يحتوي خلاصة رحلاته ومقابلاته.

"فلسطين" جمعت بين االمؤرخَين، الخالدي وهيرودوتُس، غير أن الزمن باعد بينهما خمسة وعشرين قرناً، فالخالدي، وهو المعاصر للحركة الصهيونية وإسرائيل، تمكّن من الرد على الافتراءات الموجّهة إلى شعبه. وأمّا هيرودوتُس فليس بإمكانه الرد دفاعاً عن نفسه، ومن حقّه علينا أن ندافع عنه، فهو مَن يُهاجمه الصهاينة لكونه أطلق اسم "فلسطين" على أرض كان عليه أن يسمّيها "إسرائيل". وما كنّا لنتعرض لهذه التهمة، لولا أن المؤرخ البريطاني توينبي، وهو الشهير بحكمته وعدالته، كان من المردّدين لها، فهو القائل، "حتى في نهاية القرن الخامس قبل الميلاد، وبعد أن كان أنبياء إسرائيل قد قالوا كلمتهم، فإن اسم إسرائيل لم يكن معروفاً لدى هيرودوتُس، وأرض إسرائيل ما تزال محتجبة وراء فلسطين

(Palaistine)."[1]

صحيح أنه يوم زار هيرودوتس فلسطين كانت مملكة يهوذا الجنوبية قد زالت منذ قرن، وكذلك مملكة الفلسطينيين، غير أن المؤرخ اليوناني الدقيق لم يخترع الاسم ولم يُطلقه، بل سجّل الاسم الشائع والمتداول بين الناس، أي ببساطة، كان اسم الساحل في ذلك الزمن ما زال "فلسطين". ونكتفي بثلاثة أمثله:

قال هيرودوتس في حديثه عن الحضارة المصرية القديمة: "إن الأعمدة التي بناها ملك مصر، سيسوستريس، في البلاد التي احتلها قد اختفى معظمها. أمّا في الجزء من سوريا، المدعو فلسطين، فقد رأيتها بنفسي ما زالت منتصبة واقفة تعلوها الكتابة والرمز."[2] وقال عن انتشار العادات المصرية: "إن الفينيقيين والسوريين أنفسهم من فلسطين يعترفون بأنهم تعلموا هذه العادة [عادة الختان] من المصريين."[3] وقال عن موقع مصر: "والآن، فالمدخل الوحيد لمصر من هذه الصحراء: البلاد من فينيقيا حتى حدود مدينة قادش تخصّ السوريين في فلسطين."[4]

لسنا في موضع مناقشة توينبي بالتوقف إزاء احتمالات تفسيره لهذه المقتبسات، فموضوعنا هو المؤرخان هيرودوتُس والخالدي اللذان لا بد لنا من التوقف إزاء الجانب الأهم الذي يجمع بينهما، ألا وهو النهج في كتابة كل منهما للتاريخ؛ فالمؤرخ اليوناني الملقب بـ "أبو التاريخ"، لم يكن لقبه هذا فقط لكونه أول مَن أصدر كتاباً تاريخياً جامعاً، بل لكونه أول مَن ابتدع نهجاً علمياً موثوقاً به، فهو لم يكن يسرد الحكايات كما سمعها من دون تدقيق، بل كان يدقق بإمعان، ويسعى إلى كسب ثقة القارئ بالإشارة إلى مصادرها، بالإضافة إلى اهتمامه بمصداقية الأدلة التي تقوم عليها الحكاية.

وأمّا الخالدي، فهو مَن يتميّز بين المؤرخين المعاصرين في كونه يعطي اهتمامه الأول لمصادره، وكثيراً ما يشرحها للقارئ، ويشرح صعوبات الحصول عليها، فضلاً عن كونه لا يُقْدم على القيام ببحث ما، أو تأليف كتاب ما، إلاّ بعد أن يتأكد من إمكانية توفير جميع المصادر المطلوبة. ألم يَصدر كتابه الرائع عن دير ياسين بعد خمسين عاماً؟ ألم يستغرق البحث فيه مع العديد من الباحثين والمساعدين أعواماً؟ هل هناك مَن افتقد مصدراً ما غير متوفر في هذا الكتاب النموذجي؟

سوف يتضح معنا ـ في الصفحات التالية ـ أن سر الخالدي ليس في ما أنتجه من كتب وأبحاث ومقالات فحسب، بل في كونه المؤرخ الذي اختطّ نهجاً أكاديمياً لا يُبارى، ونكاد نقول إن كلاً من أبحاثه له نهجه وشخصيته وأسلوبه، وهكذا أضحى قدوة للباحثين والمؤرخين.

II ـ شعب فلسطين

لمّا صدر كتاب وليد الخالدي "قبل الشتات: التاريخ المصوّر للشعب الفلسطيني ١٨٧٦ ـ ١٩٤٨"، بالإنجليزية أولاً، سنة ١٩٨٢،[5] كان تعليق صحيفة "لوموند ديبلوماتيك" هو الأكثر إيجازاً وإصابة للهدف: "كلنا سمع بالشعار الصهيوني 'أرض بلا شعب.. إلى شعب بلا أرض'...

إن هذا الكتاب الرائع هو الحجة الداحضة لهذا القول."

أمّا المؤلف، فهو مَن قدّم كتابه في كلمته التمهيدية، بقوله: "إن موضوع هذا الكتاب محدود عن قصد وسابق تصميم، وكذلك الفترة الزمنية التي يغطيها. أمّا لبّه فهو الصور وتعليقاتنا عليها. ونحن لم نهدف فيه إلى دراسة الصهيونية بحد ذاتها، ولا إلى الصراع العربي ـ الصهيوني بصورة عامة."[٦]

وهكذا، وباعتراف "لوموند ديبلوماتيك"، توصّل الخالدي في كتابه الذي لم يَسْعَ فيه إلى تقديم أي جديد أو دراسة عن الحركة الصهيونية، إلى دحض شعارها الذي نشرته في العالم على أنه شعارها الأول، ومن دون أن تعترف يوماً بفضل قائله، وهو اللورد البريطاني شافتسبري،[٧] والسؤال: كيف توصّل الخالدي إلى إقناع غير المقتنعين بوجود الشعب الأصيل؟

يحتوي الكتاب على نحو خمسمائة صورة لفلسطين ما بين ١٨٧٦ و١٩٤٨، لشعبها والحياة على أرضها ولمدنها وقراها ومزارعها ومدارسها ومؤتمراتها ومؤسساتها، وقد تم اختيارها من نحو عشرة آلاف صورة، لا يظهر من خلالها والتعليقات عليها حيوية الشعب الذي أنكرت وجوده القوى الصهيونية، فحسب، بل يظهر كذلك مدى التطور الاجتماعي والثقافي والحضاري والنضالي لهذا الشعب.

نُشر كتاب "قبل الشتات" باللغات الأربع: الإنجليزية والعربية والفرنسية والإسبانية، ولعله الكتاب الأشهر للخالدي، غير أن ذلك ليس السبب الأهم الذي دفعني للكتابة عنه في مستهل الحديث عن المؤرخ العلاّمة؛ كذلك ليست متعة الاستغراق في الصور الجميلة والنادرة وقراءة التعليقات عليها بشوق هو السبب، فهذه حالة طبيعية يعيشها كل فلسطيني وهو يبحث في تلك الصفحات عن قريته أو مدينته أو مدرسته. أمّا السبب فهو ما يتحدث عنه الكتاب، صورة ونصّاً، عن تاريخ شعب فلسطين في القرنين الأخيرين، وكما أشار المؤلف فإن هذا هو لبّ الكتاب، غير أن هناك سبباً آخر نجده في مقدمة الكتاب التي تتحدث عن تاريخ الشعب منذ القديم، وخصوصاً عن حضارته عبر العهود العربية ـ الإسلامية المتلاحقة منذ القرن السابع للميلاد؛ فهذه المقدمة ليست مجرد عرض مقتضب كما هو شأن المقدّمات، بل فيها من التوسّع والأمثلة ما يكفي للرد غير المباشر على إنكار الصهيونية المطلق لعروبة فلسطين ولأهمية القدس لدى المسلمين. وقد عالج مؤرخون عرب كثيرون تاريخ فلسطين في مؤلفات ومراجع غزيرة، لكن قسماً كبيراً من هؤلاء انطلق من بديهية عروبة فلسطين، وبديهية أهمية القدس والمسجد الأقصى المبارك، وكأن الرد على افتراءات العقل الصهيوني ليس من شأن المؤرخين بل السياسيين وحدهم.

الكتّاب الصهاينة والإسرائيليون من ناحيتهم، يكادون لا يفصلون بين ما هو شأن ديني أو تاريخي أو سياسي بالنسبة إلى القدس، فالقدس لها الأولوية دوماً، وهي مدينتهم لهم وحدهم، يتوجه إليها اليهود بالصلاة من كل أنحاء العالم، بينما يتوجه المسلمون للصلاة نحو مكّة. أمّا المسيحيون بنظرهم، فلهم في فلسطين بعض الأماكن الأُخرى خارج القدس. وقد لجأ الكاتب مارتن غيلبرت للبرهان على أهمية القدس بالنسبة إلى اليهود بالمقارنة بين تكرار ورودها في الكتب الدينية، فقال إن كلمة أورشليم وردت في التوراة في ٦٥٦ مناسبة، بينما لم تذكر في العهد الجديد إلاّ مرتبطة ببعض الأحداث، وأمّا في كتاب المسلمين

فهي لم تذكر ولا مرة.[8] أمّا تجاهل الصهاينة لشعب فلسطين فيبدأ من تجاهل الكنعانيين وحضارتهم، مع الإنكار التام للوجود العربي، ففلسطين لم تكن سوى أرض قاحلة بلا شعب. إن هذه التهم التي حاول بعض علمائهم إخفاءها وراء أقنعة أكاديمية، وعبّر عنها بعضهم بطرق فجة، وجدت أخيراً مَن يتصدى لها بالبراهين التاريخية القاطعة، ومن أبرز هؤلاء وليد الخالدي في الكثير من كتاباته، وخصوصاً في مقدمته هذه.

رواية الخالدي عن الوجود العربي في فلسطين تبدأ مع القبائل العربية التي عاشت هناك قبل الإسلام بزمن بعيد، ومنها مَن اعتنق المسيحية. وأمّا بعد ظهور الإسلام فكانت القدس هي قِبلة الرسول والمسلمين للصلاة، لا مكّة. وتحدث عن الإسراء والمعراج، وعن فتح القدس على يد عمر بن الخطاب، وعن العهدة العمرية، مسهباً في مآثر الخليفة العادل وحكمته ورحمته.

وبهذا الأسلوب المسهب أحياناً، والمختصر جداً أحياناً أُخرى، استمرت كتابته عن العهدَين الأموي والعباسي وما بعدهما، فذكر الخلفاء الذين بنوا في فلسطين المساجد، وأولها المسجد الأقصى المبارك، والذين زاروها، والذين بنوا فيها المدن والمدارس والمستشفيات، وذكر العلماء والأئمة الذين حرصوا على أداء فريضة الحج بذهابهم إليها، وهؤلاء الذين اختاروا الإقامة فيها، كما حرص على نقل مقتبسات عن المؤرخين والجغرافيين في وصف معالم القدس وأهلها، وأعطى صورة جلية عن صلاح الدين وعدله ورأفته وفروسيته واهتمامه بالعمران والمدارس، وفتحه أبواب القدس أمام الحجّاج المسيحيين الأوروبيين. وأمّا عن الوجود اليهودي في القدس فقال إنه تقلّص في عهد الصليبيين إلى يهودي واحد كان يعمل صبّاغاً، غير أن وجودهم أخذ يتكاثر في الديار الإسلامية كلها بعد العهد الصليبي.

ونقتبس عن الخالدي بشأن اهتمام المسلمين والعرب بفلسطين:

> ولم يكن اهتمام المسلمين والعرب بفلسطين نزوة عابرة كردة فعل للتهديد الصليبي. ففي أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر ميلادي مثلاً، أي بعد دحر الصليبيين بمئات السنين، اتخذ هذا الاهتمام شكلاً جديداً. فقد أصبح الحج إلى القدس من المبادئ الأساسية لكثير من طرائق الصوفية. وبات مسجد قبة الصخرة في القدس ملتقى لشيوخها وأتباعهم، يأتونه من دمشق والقاهرة وغيرهما من المدن، ليختلوا في جواره ويلتقوا مريديهم عنده. وكانت تقام هناك حلقات الذكر وتلاوة الأوراد، تردد خلالها صفات الله ومدائح نبيّه بتنويعات تبتعث حالة من الوجد عند موقع الإسراء والمعراج ذاته تصوّر المتصوفون أنها تحاكي حالة النبي عندما عرج إلى السماء، ذلك بأن أهل الطرائق نظروا إلى المعراج على أنه رمز لانطلاق الروح من إسارها الجسدي.[9]

لم يترك المؤلف جانباً هامّا إلاّ وتحدث عنه مع مقتبسات وشروحات على مختلف الأصعدة: فكرياً وفقهياً وأدبياً وحضارياً واقتصادياً، وردّاً على تهمة "الأرض القاحلة"، نتوقف مع اقتباسه عن المؤرخ المقدسي، وهو يعدد المنتوجات الرئيسية في فلسطين، في القرن العاشر

للميلاد، فيقول:

> [....] كانت الحاصلات الزراعية منها وفيرة وممتازة، وهي تشمل الفواكه بأنواعها (ومن ذلك الزيتون والتين والعنب والسفرجل والبرقوق والتفاح والبلح والجوز واللوز والعنّاب والموز) وكان بعضها للتصدير.[١٠]

أين هذه المنتوجات الزراعية من تهمة الأرض القاحلة؟

ولنعد إلى المقدسي وهو يواصل تعداده للموارد الأُخرى:

> كذلك هناك الحاصلات التحضيرية (ومنها قصب السكر، والنيلة، والسماق). ولكن الموارد المعدنية مهمة أيضاً: فهناك الصلصال الطباشيري... والرخام من بيت جبرين، والكبريت الذي يعدّن من الغور [وادي الأردن]، ناهيك بالملح والقار من البحر الميت [....].[١١]

وتنتهي المقدمة مع بدء الغزو الصهيوني والحرب الكبرى، ومع تساؤل القارئ: أهذه مقدمة؟ أم صفحات متكاملة عن حضارة التاريخ العربي ـ الإسلامي في فلسطين؟[١٢]

كان من المتوقّع أن يهبّ غلاة الصهاينة ضد كتاب كهذا، جملة وتفصيلاً، غير أنه لم يكن متوقّعاً من مؤرخ وأستاذ جامعي طالما سعى إلى اكتساب صفة الموضوعية في كتاباته، أن ينبري بالنقد الجارح، وكأن الشعب الفلسطيني على طريق الزوال، وليس هذا استنتاجاً، بل ما عبّر عنه بني موريس بالكلمات، ولامجال للتوقف إزاء التفاصيل التي أثارها، فهو الشهير بالولع بالتفاصيل، لكنه يجدر التوقف إزاء ردّ الخالدي عليه ردّاً مُحكماً بالمنطق والحقائق.

وللمثال نذكر ردّ الخالدي على اتهام بني موريس له بأنه أشار عدة مرات إلى خدمات الفلسطينيين للحلفاء في الحرب العالمية الثانية، لكنه فشل تماماً في ذكر خدمات الحاج أمين الحسيني لألمانيا النازية.[١٣] وفي ردّه توقّف الخالدي بتساؤل وتعجّب إزاء تركيز المؤرخ الناقد على أنه "فشل تماماً"، ونفى صحة الاتهام بقوله إنه ذكر في الصفحة ٢٣٥ بأن المفتي "فرّ، سنة ١٩٤١، إلى دول المحور، حيث أمضى بقية سنوات الحرب." وأكمل يعدد ما فشل تماماً في ذكره، لكن على الجانب الآخر: الاتفاقية بين ألمانيا النازية وعصابة شتيرن التي كان قطبها يتسحاق شامير، واللقاءات بين حاييم وايزمان وموسوليني، واتفاقية الترانسفير التي تمت في نهاية الثلاثنيات بين المنظمة الصهيونية العالمية والرايخ الثالث، وهي القائمة على إعطاء الأفضلية لطلائع الشباب من المهاجرين إلى فلسطين على حساب السكان اليهود الألمان بشكل عام.[١٤]

ويبقى علينا توجيه الشكر لبني موريس، فلولاه، لما كان هذا الردّ.

III ـ أرض فلسطين

منذ وطئت أقدام اليهود الصهاينة أرض فلسطين في الربع الأخير من القرن التاسع عشر،

وجُلّ اهتمامهم الحصول على الأرض، والمزيد من الأرض، بأية وسيلة، لكنه لم يكن ليخطر على بال أحد ـ وفلسطين في ثورة ضد التقسيم ـ أن هؤلاء قد وضعوا خطة جهنمية، وأنهم قد ابتدأوا بتنفيذها، وأنّ نتائجها ليست أقلّ من اقتلاع مئات الآلاف من السكان العرب نحو أية حدود.

وكانت النكبة. وإذ بالمؤرخ الخالدي يفاجئ الصهاينة، سنة ١٩٦١، بنشره مقاله المدوّي عن تلك الخطة الجهنمية، خطة دالت.[١٥] وممّا ضاعف من غضبهم أنه نشره باللغة الإنجليزية، ما جعله ينتشر سريعاً في العالم الغربي، ليس بسبب اللغة وحدها، بل بسبب أكاديميته ومنطقه وحجته المقنعة، وبسبب المصادر التي نقل عنها، مدققاً فيها، ومقارناً بينها، ومعلقاً عليها.

"خطة دالت"، أو (خطة د) هو الاسم الذي أطلقته القيادة الصهيونية العليا على الخطة العامة للعمليات العسكرية في إطار عمليات الصهاينة الهجومية في نيسان / أبريل وأوائل أيار / مايو ١٩٤٨، وهدفها الرئيسي الاستيلاء على الأراضي المعطاة لليهود بناء على قرار التقسيم، وهذا بالإضافة إلى الأراضي التي كانوا قد احتلوها خارج حدود التقسيم؛ ومن أبرز أهدافها أيضاً تفويت الفرصة على الجيوش العربية ومنعها من دخول فلسطين في الخامس عشر من أيار / مايو. وكانت النتائج الفعلية تدمير القرى العربية، وحمل مئات الآلاف من القرويين على النزوح، وهكذا يرى الخالدي أن الأهمية الكبرى لدراسة خطة دالت في كونها تتعلق بأصل مشكلة اللاجئين.[١٦]

نشر المؤرخ مقاله عن "خطة دالت" للمرة الثانية، سنة ١٩٨٨، في مجلة *Journal of Palestine Studies*، لكنه أضاف إليها مقدمة في غاية الأهمية استهلها بقوله:

> إن مسؤولية الحركة الصهيونية عن اقتلاع وتشريد الشعب الفلسطيني هي جزء لا يتجزأ من قيام دولة إسرائيل. وهذا أمر يعرفه معظم الإسرائيليين في قرارة أنفسهم، الشيء الذي يفسر إلى حد ما الشعور الواسع الانتشار في صفوفهم بانعدام الطمأنينة. غير أن الحكومة الإسرائيلية لا ولن تعترف أبداً بتلك المسؤولية، كما أنها عمدت، وعلى امتداد الأعوام الأربعين الفائتة، إلى صرف الأنظار عن هذا الموضوع من خلال ترويج كذبة فحواها أن الزعماء العرب أصدروا أوامر إلى الفلسطينيين في سنة ١٩٤٨ بإخلاء بلدهم تمهيداً لـ "غزوه" من جانب الجيوش العربية النظامية.[١٧]

وهكذا، ولأول مرة، يقول مؤرخ فلسطيني، وبكل وضوح، بأن الشعور العام لدى الإسرائيليين بأنهم مهددون دوماً في أمنهم، يعود في جزء منه إلى المسؤولية الصهيونية في اقتلاع الفلسطينيين من ديارهم. غير أن العلماء الإسرائيليين يردون مسألة الخوف إلى عقدة "المسادا" وحدها، ومنهم الأخصائي في علم النفس يهويكيم شتاين الذي رأى أن هذه العقدة ما زالت تطارد الشعب اليهودي، كما رأى أن الكثير من اليهود، ومنهم رجال السلطة، يعتبرون أنفسهم هم الضحايا، وقال:

[....] إنهم يجيزون لأنفسهم التصدي ـ وهم مزودون بأسلحة أميركية حديثة ـ لطفل عربي يمسك بحجر، ويشعرون بأن هذا الطفل يشكل تهديداً فعلياً. وهذا أمر لا مثيل له في التاريخ. فعندنا كل عَلَم وكل حجر يهدّدان كياننا. ثم يُرسَل الجيش لإنزال العَلَم عن الشجرة [....].[18]

صدَق شتاين في وصف المشكلة، لكن ليس في أسبابها؛ أما آن الأوان لعلماء النفس، على الأقل، أن يعترفوا بخطايا قياداتهم الكبرى، لا الصغرى فقط؟ ومن أولى خطايا قياداتهم، أن عملية الاستيلاء على الأرض، سنة ١٩٤٨، كانت تسير جنباً إلى جنب مع عملية طمس الحقائق، وكأنهم ليسوا هم الذين يعتدون، ويطردون، ويقتلون، ويرتكبون المجازر، والأسوأ أنهم كانوا يصوّرون للغرب أن المسؤولية تقع على الفلسطينيين وحدهم، فهم الذين تركوا أراضيهم، وهم الجبناء الذين هربوا!! ومَن لديه الشك فليركب السيارة من مدينة إلى أُخرى في إسرائيل، فأين هي القرى الفلسطينية؟ لا يوجد سوى مستوطنات وتجمعات إسرائيلية، ولا توجد لافتة على الطريق إلاّ وتحمل الأسماء العبرية. وأمّا الباحثون الذين يسألون عن الملفات الرسمية، فهم لن يجدوا فيها اسماً واحداً لقرية واحدة صدر الحكم عليها بالفناء، كذلك لن يجدوا اسمها العربي في الخرائط والوثائق. إذاً أين توجد آثار تلك القرى؟ في الذاكرة الشعبية؟ هل من ذاكرة تحفظ على مدى السنين والقرون أسماء مئات القرى؟

اعتقد الحكام الإسرائيليون أن ذاكرة الشعب الفلسطيني سوف تنسى، لكن خاب ظنّهم، هناك مَن لم ينسوا أبداً، وفي طليعتهم وليد الخالدي، الذي اختار عنوان "كي لا ننسى" لكتابه عن قرى فلسطين المدمَّرة، والكتاب ليس موجهاً للذاكرة الفلسطينية وحدها، فهو يدعو العالم كله، كي يتعرّف على تلك القرى، قرية قرية، فيشاهد صورها، ويقرأ عن تاريخها، ويتعرف على أهاليها ويعيش معهم يوم اقتُلعوا من بيوتهم، كل ذلك بصدق المؤرخ، وشهادات الناجين، وجهود العشرات من الباحثين.

يقول الخالدي في مقدمة الكتاب:

[....] وهذا كتاب عن مصير القرى الفلسطينية الـ ٤١٨ التي دُمِّرت وهُجِّر سكانها في حرب ١٩٤٨، وهي الذروة المحتومة التي لا رادّ لها والتي عقبت الاستعمار الصهيوني الذي تقدّمها، والمَعْلَمُ البارز في تاريخ الشعب الفلسطيني؛ ذلك المَعْلَم الذي اتسمت به بداية نزوح الفلسطينيين وتشتت شملهم. وما كان ضياع هذه القرى إلاّ بعض الحطام الذي خَلّفه على التراب الفلسطيني تقدّم الصهيونية. أمّا البعض الآخر، فكان سقوط أكثر من عشر مدن فلسطينية ـ منها مدن كانت آهلة بالفلسطينيين حصراً (عكا؛ بئر السبع؛ بيسان؛ اللد؛ المجدل؛ الناصرة؛ الرملة)، ومنها مدن كان الفلسطينيون يشكلون أكثرية سكانها (صفد)، أو يمثلون نسبة كبيرة من سكانها (طبرية؛ حيفا؛ القدس الغربية) فضلاً عن يافا ـ المرفأ البحري القديم ـ التي كانوا يشكلون الأكثرية العظمى من سكانها [....].[19]

تحدث الخالدي عن خلو تلك المدن من معظم سكانها العرب، وعن استيلاء الإسرائيليين على ممتلكاتهم المنقولة وغير المنقولة، وتحدّث عن المباني والبيوت العربية الرائعة الهندسة التي ما زالت قائمة، أمّا تركيزه الأهم، فكان على أسماء المدن التي ما زالت عربية، ومتداولة في الغرب، أمّا مئات القرى التي استولى الإسرائيليون عليها ودمروا بيوتها ودمروا حتى مقابرها، وسلموا أراضيها لليهود من أنحاء العالم، فلم يبق لها أي وجود في الذاكرة الغربية.[٢٠] وهذا ما دعاه إلى ضرورة القيام بمشروع توثيقي وتأريخي ومصوَّر، كي تبقى لهذه القرى مكانتها في قلب التاريخ وذاكرة العالم، ولهذا عمل على نشر الكتاب باللغة الإنجليزية أولاً.[٢١]

ابتدأت مؤسسة الدراسات الفلسطينية في واشنطن العمل على المشروع سنة ١٩٨٦، وانضمت إليها جامعة بير زيت ومركز الجليل للأبحاث الاجتماعية في الناصرة، وقد تضافرت جهود أكثر من خمسين باحثاً ومتخصصاً في شتى الميادين التاريخية والأثرية والطوبوغرافية والإحصائية والمعمارية والاقتصادية، وهذا مع القيام بمشاريع في التاريخ الشفوي والبحث الميداني، بالإضافة إلى الاستعانة بالمصادر الأرشيفية وفريق للتصوير. وبعد ستة أعوام صدر المجلد بالإنجليزية، ثم بالعربية.

احتوى المجلد المرجعي على الكثير من صور القرى بعد تدميرها، وصور المستوطنات البديلة، وهذا فضلاً عن صور القرى الجميلة ومزارعها قبل الضياع. كما احتوى على أدق المعلومات عن تاريخ القرية البعيد إن وجد، وكل ما يتعلق بتاريخها وبموقعها الجغرافي، وتعداد سكانها، وكل ما توصّل الباحثون إليه عن الحياة فيها قبل الضياع؛ عن مدارسها ودور عبادتها ومزارعها، وعن كيفية احتلالها وتهجير سكانها، وأسماء المستعمرات الحالية، وغيرها من المنشآت.

قد يتبادر إلى الذهن بأن كتاباً كهذا أهميته في كونه المرجع لمَن يبحث عن قرية ما، إلاّ إن القارئ لا يشعر وهو يسترسل في القراءة إلاّ وكأنه يقوم برحلة ممتعة مهما يشوبها من حزن وألم. هذا كتاب موسوعي بالغ الأهمية، غير أنه أيضاً كتاب للقراءة وليس لمجرد الحفظ على رفوف المكتبات، فهو يتحدث عن تهجير ٣٩٠,٠٠٠ فلسطيني من قراهم، ويبلغ هذا العدد نصف عدد اللاجئين من فلسطين كلها. إن حكايات تهجير هؤلاء اللاجئين على مدى عام من الزمن، والتي يكشفها هذا المرجع، هي البرهان على المخطط الإسرائيلي الذي لا بد لنجاحه من توفر أسبابه الأربعة مجتمعة، وهي: القتل والتعذيب والمجازر؛ الاقتلاع أو التهجير بأية وسيلة كانت؛ الاستيلاء على الأرض؛ تغيير معالم الأرض ومحو آثارها العربية.

وننتقل إلى كتاب آخر للخالدي: "أرض السفارة الأميركية في القدس: الملكية العربية والمأزق الأميركي"،[٢٢] ويتميز هذا الكتاب ـ الوثيقة في كونه يشكل تحدياً صارخاً لكل من إسرائيل والولايات المتحدة اللتين وقّعتا اتفاقية بينهما، سنة ١٩٨٩، تم بموجبها موافقة حكومة إسرائيل على تأجير حكومة الولايات المتحدة عقاراً مساحته ٣١,٢٩٠ م٢ في القدس الغربية، أطلق عليه "عقار القدس"، بمبلغ دولار واحد سنوياً لمدة ٩٩ عاماً، وذلك لتشييد بناء للسفارة الأميركية في هذا الموقع.[٢٣]

لم تترك هذه القضية البالغة الحساسية مجالاً للمؤرخ المقدسي سوى أن يضعها فوق كل اعتبار، فأصبحت شغله الشاغل، وخصوصاً بعد أن وافق الكونغرس الأميركي، سنة ١٩٩٥، على قانون نقل السفارة إلى القدس.[٢٤]

ورد في هذا القانون تحت عنوان "حقائق" سبع عشرة مادة تشير إلى القوانين الإسرائيلية المتلاحقة منذ سنة ١٩٥٠، إلى أن القدس هي عاصمة دولة إسرائيل، وهي المدينة الموحّدة، كما تشير أيضاً إلى المواقف الأميركية المتعددة إلى جانب إسرائيل. وللمثال ما جاء في المادة (١٥): "تحتفظ الولايات المتحدة بسفارتها في العاصمة الفعلية لكل بلد، إلاّ في حالة صديقتنا الديمقراطية وحليفتنا الاستراتيجية، دولة إسرائيل." وما جاء في المادة رقم (١٧): "سنة ١٩٩٦ ستحتفل دولة إسرائيل بالذكرى الـ ٣٠٠٠ للوجود اليهودي في القدس منذ دخلها الملك داود."

عجباً، متى كان الوجود اليهودي في القدس متواصلاً منذ دخلها الملك داود؟

في كتابه كان المؤرخ الخالدي أرفع بكثير من الرد على جهل الكونغرس الأميركي بالتاريخ، أو تجاهله، فاهتمام المؤرخ أولاً وآخراً تمحور حول قضية أساسية وحيدة، وهي التوصل إلى إثبات ملكية "ثكنة أللنبي"، وهو الموقع الذي أطلق عليه اسم "عقار القدس".

وضع المخطط. تعاون معه نحو أربعين أستاذاً وباحثاً ومحامياً في مراحل العمل المتعددة طوال ستة أعوام. وكذلك تعاونت معه اللجنة الأميركية من أجل القدس (ACJ). أمّا المهمة الأساسية التي قام بها الباحثون فكانت جمع الأدلة التي تثبت الملكية الفلسطينية للموقع. وتركزت المراجعة الدقيقة للسجلات الرسمية في عدد من الدول المعنية والمؤسسات الدولية، وهي: محفوظات لجنة التوفيق التابعة للأمم المتحدة والخاصة بفلسطين (UNCCP) في نيويورك؛ مكتب السجلات العامة (PRO) في لندن؛ وزارة الخارجية الأميركية؛ بلدية القدس؛ سجل ملكية الأراضي (الطابو)؛ وزارة العدل الإسرائيلية؛ فضلاً عن ورثة الملاّك الأصليين.[٢٥] وخلاصة النتائج أن نسبة ٧٠,٥٣٪ من موقع أرض السفارة هي أراض فلسطينية مصادرة، وأن جزءاً من الأراضي المستأجرة تخص الوقف الإسلامي.[٢٦] كذلك أظهرت نتائج البحث الملكية لـ ١٩ عائلة مقدسية كانت تقيم في القدس الغربية قبل انتهاء الانتداب، ومنها ١٥ عائلة من المسلمين العرب، و٤ عائلات من المسيحيين العرب، وبلغ عدد الملاّك الأفراد ٧٦ مالكاً.

واستناداً إلى الاتصالات الشخصية مع ورثة الملاّك الأصليين تم الحصول على وثائق جديدة، منها اتفاقيات إيجار بين الحكومة البريطانية وبين ملاّك القسائم، ومنها وصولات الإيجار الذي دفعه البريطانيون.[٢٧] أمّا النتيجة الأهم انطلاقاً من القوانين الأميركية، فهي التوصل إلى تحديد ما يقارب ٩٠ وارثاً يحملون الجنسية الأميركية، في نهاية القرن العشرين، وأهمية هذا العدد يأتي في ضوء القانون المتعلق بـ "المصادرة الظالمة أو الاستيلاء الجائر على أملاك تخص مواطنين أميركيين، قامت بها الحكومة الكوبية، وما تلا ذلك من استغلال لهذه الأملاك على حساب الملاّك الشرعيين."[٢٨]

وهكذا، تمكّن المؤلف في تسعة وعشرين صفحة فقط، مدعومة بالوثائق والإحصاءات، من البرهان على ملكية هذه الأرض لورثة أصحابها المُلاّك الفلسطينيين. وربما الأهم، ما

ورد في تحليله السياسي لهذه القضية:

> إن بناء الولايات المتحدة لسفارتها في القدس على أرض اللاجئين الفلسطينيين المصادرة له دلالات أبعد أثراً من موقع السفارة نفسه. فهو ينتهك أربعة جوانب رئيسية من مفاوضات الحل النهائي: القدس، والمستعمرات، واللاجئين، ومساحة الدولة الفلسطينية المرتقبة. بالنسبة إلى القدس، فإن نقل السفارة إلى القدس "غير المقسَّمة" و"الموحَّدة" و"المجتمعة الشمل"، كما يسميها "قانون نقل السفارة إلى القدس"، يدعم السيادة الإسرائيلية على القدس الغربية والشرقية. وفيما يتعلق بالمستعمرات، فإنه يشرِّع ما أقامته إسرائيل من مستعمرات هناك. وبالنسبة إلى اللاجئين، فإنه يدعم ـ بمفعول رجعي ـ المصادرة بالجملة لأملاك اللاجئين الفلسطينيين في كل أنحاء إسرائيل منذ سنة ١٩٤٨. وختاماً فإنه يؤثر مسبقاً في تقرير مساحة الكيان الفلسطيني المستقبلي لأنه يدعم، بطريقة غير مباشرة، حدود القدس التي تزداد اتساعاً باستمرار، من القدس الكبرى إلى القدس المتروبوليتانية، على حساب أراضي الضفة الغربية. لكل هذه الأسباب، ينتهك نقل السفارة صدقية الدور الأميركي في العملية السلمية في الشرق الأوسط، وخصوصاً أنه يناقض وينقض الالتزامات والتأكيدات الصادرة عن جميع الإدارات الأميركية السابقة.[٢٩]

وتبقى ميزة كبرى لهذا الكتاب الصغير حجماً، والكبير أثراً، في أنه مثالٌ للّحمة التي لا تنفصل بين الأرض والشعب في القضية الفلسطينية، مهما تمادى الإسرائيليون في مخططاتهم للتوصل إلى دولة يهودية خالصة.

وأمّا قضية نقل السفارة، فالخالدي كعادته، ما اكتفى بكتابه، بل أثارها في أكثر من مناسبة، فقال في محاضرة له في بيروت، سنة ١٩٩٩، بعنوان "القدس مفتاح السلام":

> وممّا وطّد أقدام العدو وأوصله إلى مقامه العزيز بالقدس تأييد أعلى مجلس تشريعي في أعظم دولة ديمقراطية، وقد وضع هذا الحليف الجبار أصابعه في آذانه لكل نداء سوى مطالب إسرائيل، وعقد النية على نقل سفارة بلاده إلى القدس عاصمة أبدية وموحدة تحت حراب إسرائيل.[٣٠]

IV ـ الافتراءات الصهيونية

ليس موضوعنا في هذا البند سلسلة الافتراءات الصهيونية ضد الشعب الفلسطيني، فما يعنينا منها فقط مثلان من أجل التعرف على ردّ الخالدي على كل منهما، ذلك الرد المنطقي التحليلي المستند إلى مصادر ووثائق لم يكن ليخطر ببال الصهاينة يوماً، أن هناك عقلاً فلسطينياً مستنيراً في استطاعته بمفرده أن يتوصّل إليها، وأن يتمكّن من إظهار الحقيقة

التي تدحض الافتراءات الظالمة.

زمنياً، يعود المقالان إلى السنة العاشرة للنكبة، وما زال كلاهما من أهم ما نشر المؤرخ في موضوع القضية الفلسطينية.

المقال الأول: "لماذا غادر الفلسطينيون"[٣١] يرتكز على الشائعة الصهيونية التي كادت تتحول إلى حقيقة راسخة في العقل الغربي، وهي أن الفلسطينيين غادروا بلادهم، أو ولّوا هاربين، تلبية لنداءات حكّام العرب لهم عبر الإذاعات العربية، في الفترة ما بين تشرين الثاني / نوفمبر وأيار / مايو ١٩٤٨، بضرورة المغادرة، تمهيداً لدخول الجيوش العربية.

كان اللافت للنظر أن هذه الشائعة لم تنتشر قبل سنة ١٩٤٩، فما سرّها إذاً؟

ما كان صعباً على الخالدي أن يكتشف سرّها، إذ رأى أن مأساة اللاجئين الفلسطينيين كانت قد ابتدأت تهزّ ضمير العالم، فكان لا بدّ للصهاينة من تلفيق تهمة كهذه، لتبرئة أنفسهم من أية مسؤولية، وفي الوقت نفسه لإلقائها على العرب، الذين سوف يصبح من واجبهم تحمّل أعباء اللاجئين. وهكذا ما كان أمام المؤرخ سوى الرد، لكن بأسلوبه الأكاديمي، لا بأساليبهم الغوغائية.

قام بمراجعات دقيقة لمختلف المصادر والمراجع التي من المتوقّع أن تكون قد أشارت إلى هذه الشائعة الأسطورية، ومنها: ملفّات جامعة الدول العربية ومحاضر جلساتها المخبأة في الأدراج؛ التقرير السرّي العراقي المستند إلى كل من أوراق وزارة الخارجية ووزارة الدفاع؛ منشورات الهيئة العربية العليا؛ أبرز الصحف العربية، وهي "الأهرام" المصرية و"الحياة" اللبنانية و"الدفاع" الفلسطينية؛ الرصد الكامل للإذاعات العربية، وما كان هذا متوفّراً سوى في لندن. وكانت نتيجة المراجعات والبحث أنْ لا نداء قد صدر لأهل فلسطين بالرحيل من الحكّام العرب على الإطلاق.

بحث أيضاً في المصادر الدولية، ومنها تقارير "لجنة فلسطين" التي عينتها الهيئة العامة للأمم المتحدة لتنفيذ قرار التقسيم، إذ احتوت تقاريرها على الصعوبات الناجمة في فلسطين، وكان آخرها بتاريخ ١٠ نيسان / أبريل ١٩٤٨، لكنه لم يجد أية إشارة فيها، كما أنه لم يجد أيضاً في تقرير الكونت برنادوت الذي أفرد قسماً في تقريره الأخير عن اللاجئين.[٣٢]

وبحث في الكتب التي تناول مؤلفوها تلك المرحلة، ومنهم مَن لم يكن مؤيداً للعرب، فلم يجد شيئاً كذلك، وكان من هؤلاء: وايزمان؛ غلوب (باشا)؛ غريفز؛ كوستلر؛ بالانس؛ هيرووتز؛ هولنغوورث؛ ولسون؛ كيرك؛ ماكدونالد.[٣٣]

والطريف أنه خلال رصد الإذاعات الصهيونية اكتشف الخالدي ما يمثّل النقيض للشائعة الكاذبة. ففي ٢٩ آذار / مارس أعلن راديو الهاغانا أن شخصيات من يافا أصرّت على أنه يجب على كل من سورية ولبنان ألاّ يسمحا للفلسطيني بالمرور إلاّ إذا كان مبعوثاً من قبل الهيئة العربية العليا. وفي ٢٦ نيسان / أبريل أذاع راديو الهاغانا أيضاً أن المجلس الوطني في القدس رفض إعطاء تأشيرات دخول لمَن يريد المغادرة إلى الأردن.[٣٤]

أمّا المصادر العربية التي خلت جميعها من أي ذكر للشائعة المغرضة، فقد ورد فيها على العكس من ذلك، ما يحضّ الفلسطينيين على البقاء، فأذاع راديو دمشق في ٤ نيسان / أبريل ١٩٤٨ بياناً عن الهيئة العربية العليا موجّهاً إلى الموظفين العرب في الدوائر الحكومية

تدعوهم فيه إلى الاستمرار في وظائفهم، وتدعو الأعلى رتبة منهم إلى تسلّم المسؤولية في دوائرهم. ونشرت جريدة "الدفاع" بتاريخ ٢٢ نيسان / أبريل، بياناً من الهيئة العربية العليا تدعو فيه العرب إلى الصبر والبقاء: "إن واجب الدفاع عن الأرض المقدّسة يقع علينا ـ نحن شعب فلسطين ـ أولاً وآخراً."[٣٥]

ونشرت جريدة "الحياة" بتاريخ ٣٠ نيسان / أبريل ١٩٤٨ أن اللجنة المركزية للاجئين الفلسطينيين في بيروت قررت عدم منح الفلسطينيين الذين بإمكانهم حمل السلاح، الإذن بالإقامة، وذلك على أساس إعادتهم إلى فلسطين. وفي ٢٨ آذار / مارس أرسلت الهيئة العربية العليا من القاهرة مذكرة إلى رؤساء الحكومات العربية تلحّ فيها عليهم بعدم إعطاء إذن للفلسطينيين بالدخول إلى البلاد العربية، إلاّ للطلبة والمرضى وأعضاء الهيئة العربية العليا. ويشير الخالدي إلى أن الرأي العام العربي كان عدائياً تجاه اللاجئين، وخصوصاً تجاه الذكور منهم، فوصفت مجلة "آخر ساعة" في شباط / فبراير الفلسطينيين الشباب الذين غادروا بلادهم بالخونة.[٣٦]

> أمّا الأوامر بالخروج فكان مصدرها الهاغانا، إذ نشرت جريدة "الحياة" في ١٦ أيار / مايو ١٩٤٨ نص منشور تم إسقاطه من الجو، وهو بتوقيع قائد الهاغانا في الجليل، يقول فيه:
>
> [....] لا توجد رغبة لديّ في القتال ضد الناس العاديين الذين يحبون العيش بسلام، لكننا نقاتل فقط الجيوش والقوات التي تستعد لغزو فلسطين. لذلك أعلن في هذا المنشور بأن جميع الناس الذين لا يريدون هذه الحرب عليهم المغادرة مع نسائهم وأطفالهم ليكونوا في أمان. سوف تكون هذه الحرب شرسة لا رحمة فيها [....].[٣٧]

ويركّز الخالدي أخيراً على أن الصهاينة لم يتمكنوا من نشر نص النداء الذي يدّعون بأنه صدر عن الحكّام العرب، ولم يتمكنوا كذلك من ذكر أسماء الإذاعات العربية والتواريخ التي تم فيها إذاعة النداءات المزعومة. وأمّا عن دخول الجيوش العربية، فقال إن العكس هو الصحيح، فدخولها كان نتيجة لا سبباً، فالقرار العربي الرسمي لم يُتخذ إلاّ في أوائل أيار / مايو ١٩٤٨.[٣٨]

أضحى مقال الخالدي محط اهتمام في العديد من العواصم الغربية، فهذه أول مرة يتصدّى فيها أستاذ جامعي فلسطيني للافتراءات الصهيونية بالمنطق والأدلة المُقْنعة؛ أمّا الدوائر الصهيونية فكانت لديها ردة فعل عنيفة إلى الحد الذي جعلها تتشبث بافترائها وتركّز على مدينة حيفا وهروب أهاليها تلبية لنداءات الزعماء والحكّام العرب. وجاء رد الأستاذ المُحكم هذه المرة بعنوان "سقوط حيفا"[٣٩] في الشهر الأخير من العام نفسه.

قدّم الخالدي شرحاً موجزاً للوضع السياسي الدولي، وتوقف عند مقابلة ترومان، الرئيس الأميركي، لوايزمان، وكان هذا الأخير يلحّ على المقابلة منذ منتصف آذار / مارس ١٩٤٨. وقال المؤرخ أنه لا يعلم ما جرى من حديث، لكنه ربط المقابلة منطقياً بعودة الولايات

المتحدة إلى قرار التقسيم، في حال تَمَكّن الصهاينة من خلق أوضاع جديدة على الأرض.

شرح الوضع الميداني وأثبت أهمية فرض واقع جديد من قبل الصهاينة منذ الأول من نيسان / أبريل ١٩٤٨، أي منذ بدأت عملية نحشون التي هدفت إلى ربط تل أبيب بالقدس، ما أدّى إلى احتلال وتدمير عدد من القرى العربية، واحتلال القسطل ومجزرة دير ياسين، وانتهت هذه العملية بطرد ما بين عشرة آلاف وخمسة عشر ألفاً من أهل القرى، لتبتدئ عملية يفتاح وغايتها إخراج العرب من الجليل الشرقي وربط طبرية بصفد. وقد توجت عملية يفتاح باحتلال طبرية في ١٨ نيسان / أبريل وطرد سكانها العرب. وهكذا جاء الهجوم على حيفا في الصباح الباكر من يوم الأربعاء في ٢١ نيسان / أبريل تكملة لما سبق، وبدءاً للمرحلة الثالثة من العدوان الصهيوني.

تحدّث عن اللجنة القومية التي تألفت في حيفا في إثر قرار التقسيم برئاسة الحاج رشيد إبراهيم، وكانت مسؤولة عن الأمن والنضال وشؤون الحياة العامة، وقد عمل معها الضابط الأردني محمد حمد الحنيطي، وهو القائد المغوار الذي رفع عدد حامية حيفا من ٧٥ إلى ٣٥٠ مقاتلاً، ثم كان استشهاده بتاريخ ١٧ آذار / مارس ١٩٤٨. واستمرت اللجنة القومية تحثّ على الصمود، وكانت وسيلتها المثلى للاتصال بالسكان هي البيانات التي بلغ عددها اثني عشر بياناً، وفيها تعليمات متواصلة، وقد أولاها المؤرخ اهتماماً خاصاً، وعمل على تقديم أبرز محتوياتها بتسلسل تاريخي وثائقي، أي أنه لم يتبع القاعدة المألوفة بترك الوثائق للنهاية، فتُقرأ أو تُهمل، بل وضعها حيث رأى ضرورة ذلك ـ أي ضمن النص ـ لإظهار أهميتها.[٤٠]

أمّا عن النداء المزعوم للزعماء والحكّام العرب لأهل حيفا وفلسطين بالرحيل، فالجديد الذي أضافه إلى مقاله السابق نشر صورتين للبرقية التي بعث بها المفتي الحاج أمين الحسيني إلى مكتبه في بيروت، إحداهما بخط المفتي للحفظ بتاريخ ١١ / ٣ / ١٩٤٨، والثانية البرقية المرسلة بالبريد بتاريخ ١٣ / ٣ / ١٩٤٨، والنص واحد: "هجرة الأطفال وغيرهم من فلسطين للشام وبيروت ضارة بالمصلحة راجعوا الجهات المختصة بدمشق وبيروت لمنعها وبلّغونا."[٤١]

تابع المؤرخ أحداث اليومين الأخيرين في حيفا ساعة فساعة، وأثبت التواطؤ الصهيوني ـ البريطاني الذي كان العامل الأساسي في سقوط المدينة، فما إن انسحبت القوات البريطانية من مواقعها التي تفصل بين المناطق العربية واليهودية، صباح الأربعاء، حتى تسلمتها قوات الهاغانا وابتدأت بسلسلة من الهجمات مستغلة عنصر المفاجأة والإرهاب النفسي. أمّا القوات البريطانية فأضحت مهمتها منع وصول النجدات للعرب، وقطع الطرق الموصلة إلى يافا والناصرة؛ وعند الظهيرة كان الشباب يقاتلون الهاغانا من دور إلى دور في مبنى دار النجّادة، ورجالات حيفا يجتمعون في منزل فريد السعد، وستوكويل القائد البريطاني يرفض مقابلة السعد والاستماع للعرب، بينما راح يتصل بقائد الهاغانا ليسأله عن شروطه التي يقبل بها مقابل استسلام المدينة. وصباح اليوم التالي والأخير، كان القتال مستمراً في بناية خوري، ولمّا فشلت الهاغانا في احتلالها قامت بإحراقها ثم احتلت مركز التليفونات في البلدة القديمة.

ومع القصف الشديد المتواصل بقنابل المورتر، امتلأت الشوارع بعشرات الآلاف من السكان الهائمين على وجوههم، منهم مَن كانوا بثياب النوم، ومنهم مَن تركوا أبوابهم مفتوحة، وما إن انتشر النبأ بأن الإنجليز في المرفأ على استعداد لحمايتهم، حتى تدافعوا بلا وعي، فمنهم مَن استطاعوا الوصول إلى عكا براً، ومنهم مَن وقفوا على الشاطئ بلا طعام ودواء لصغارهم في انتظار المراكب. ووصف شهود عيان ذلك الرعب الذي سيطر على المدينة، بأنه كان أشبه بيوم القيامة.

وأخيراً... قابل ستوكويل لجنة الطوارئ، لكنه رفض المذكرة التي تقدمت بها، وعرض عليها بالمقابل القبول بشروط الهدنة كما تقدمت بها الهاغانا، وكانت شروطاً تعجيزية، فعادت اللجنة لاستشارة رجالات حيفا المجتمعين في منزل فيكتور خياط، ثم لم يكن بد من القبول بإرسال وفد منهم بحضور الاجتماع الأخير بحضور ممثلين عن الهاغانا والبريطانيين، غير أن هذا اللقاء لم يكن للتفاوض بل للقبول بالاستسلام بلا شروط. وهكذا كانت النهاية، خياراً بين الهدنة والموت، وكان أهالي حيفا وحدهم يجابهون التواطؤ أو التآمر الصهيوني ـ البريطاني إلى المدى الأبعد، فاختاروا الهدنة أي الاستسلام.

هكذا سقطت حيفا. هكذا غادرها خمسون ألفاً من أهلها العرب. والجيش البريطاني المسؤول عن حماية السكان جميعاً، يتخلّى نهائياً عن حمايتهم، ويتواطأ مع الهاغانا على ترحيلهم.[٤٢]

بعد خمسين عاماً أعاد الخالدي نشر مقاله عن سقوط حيفا في *Journal of Palestine Studies*، مضيفاً إليه مقدمة احتوت على ما كان قد توصّل إليه من خفايا سقوط المدينة. ومن أهم ما جاء فيها أن التواطؤ الصهيوني ـ البريطاني كما ظهر خلال معركة حيفا، كان في حقيقة الأمر تطبيقاً لصفقة عقدها الفريقان قبل المعركة، وأمّا الخطوة الأولى لهذه الصفقة فكانت في نهاية شهر شباط / فبراير، يوم قام اثنان من الصهاينة بزيارة الجنرال ستوكويل، كان أحدهما أبا حوشي، وهو قائد عمّالي تربطه علاقات متينة مع الهاغانا، وكان الثاني هاري بيلين، المسؤول عن الارتباط والتنسيق بين الوكالة اليهودية والقيادة البريطانية في المدينة. وكان مطلبهما أن تسلّم القيادة البريطانية مدينة حيفا لهم، ما دامت ـ بناء على قرار التقسيم . تقع ضمن الدولة اليهودية. وطلب ستوكويل مهلة زمنية للتفكير.

وتلا هذا اللقاء الأول عدة اجتماعات، حتى دعاهما ستوكويل في ١٨ نيسان / أبريل للقائه في مكتبه، وقال لهما أنه استشار قائده الجنرال السير غوردون ماكميلان (وهو القائد العام لجميع القوات البريطانية في فلسطين)، وأنه مستعد للقبول. وهكذا تمت الصفقة: حيفا مقابل تأمين جلاء البريطانيين عبر ميناء حيفا.[٤٣]

ويقول الخالدي في نهاية مقاله بتهكم لا يخفى: "هذا ما يسميه الصهاينة سياسة مدروسة تحت رعاية الجامعة العربية لإجلاء العرب من فلسطين، كجزء من استراتيجيا أُعِدَّت بدقة لتسهيل دخول الجيوش العربية النظامية."[٤٤]

ولم يردّ الصهاينة على مقاله هذا حتى يوم صدر لأول مرة. لماذا؟

في اعتقادي أن الجانب الأكثر أهمية في هذا المقال هو في كيفية تعامل المؤرخ مع المصادر والمراجع. هو ـ كعادته ـ لم يترك مصدراً أو مرجعاً هاماً من دون العودة إليه،

إلاّ إنه هذه المرة تعمّد أن يتوقف عند الكتابات الصهيونية قبل سواها، وهكذا لم يترك لهم مجالاً للردود عليه استناداً إلى كتابات مؤرخيهم وزعمائهم، إذ كان هو البادئ بعرض أهم ما ورد لدى هؤلاء، وهو الذي قام بمناقشة أخطائهم حيث وُجدت، وبإجراء المقارنات بينهم وبين المصادر الأُخرى لإثبات الحقيقة. وكان أبرز الكتّاب هؤلاء: ميجور ولسن؛ مناحم بيغن؛ جون كمحي؛ ساشِر؛ آرثر كوستلر. ولا ننسى أن مؤرخنا كان صاحب الضمير الذي روى شهادات القلّة المنصِفة منهم، أمثال هاري ليفن.[٤٥]

V ـ نكبة فلسطين

النكبة هي الموضوع الأبرز في معظم كتابات الخالدي، وقد يشملها النص بشكل كلي أو جزئي أو ضمني، أمّا بالنسبة للنصوص أدناه فسوف نختارها من كتاباته عن النكبة بشكل كلي.

مقاله الأول نشره، سنة ١٩٥٧، بعنوان "سقوط فلسطين"، وهو مقال شامل في إطاره، غني بتفاصيله، جديد بتحليله ورؤيته، على الرغم من صدوره قبل ٥٦ عاماً. وسنتوقف إزاء مسألة واحدة لنطّلع من خلالها على تحليل المؤرخ وأسلوبه.

ناقش الخالدي طبيعة الحرب الأولى التي عمّت فلسطين إثر صدور قرار التقسيم، وشرح كيف كان اليهود يعملون على ضم الأراضي التي أعطيت لهم بموجب التقسيم، ورأى أنه كان على العرب منعهم من التنفيذ بالمحافظة على أراضيهم، وهذا معناه تبنّي منطق الدفاع؛ غير أن الجامعة العربية عوضاً عن دعم عرب فلسطين وتسليحهم على نطاق شعبي شامل، أرسلت "جيش الإنقاذ"، ولمّا كان الجيش قوة ضاربة فكان منطقياً أن يتبنّى نظرية الهجوم لا الدفاع.[٤٦]

وهو رأى أن فلسطين سقطت عملياً خلال هذه الحرب، وتحديداً بين ٦ ـ ١١ نيسان / أبريل ١٩٤٨، فالهاغانا زجّت بقوات هائلة ضد عبد القادر الحسيني في القسطل في ٧ نيسان / أبريل، وفي الوقت نفسه كانت قوات الأرغون تتجه نحو دير ياسين. ويشرح الوضع في تلك الأيام:

> وكانت قيادة جيش الإنقاذ تحاصر مشمار هايميك بروح أيوبية سمحة كأسمح ما تكون عليه الروح العربية الأصيلة. إذ إنه وبعد القصف الأول ارتفعت راية بيضاء فوق المستعمرة وطلب المختار فترة ٢٤ ساعة لإرسال رسول الاستسلام فأعطي الـ ٢٤ ساعة، ثم طلب المختار ٢٤ ساعة أُخرى فأعطيها، وفي هذه الـ ٤٨ ساعة بالذات بينما سكتت مدافع الإنقاذ عن قصف مشمار هايميك كانت دماء عبد القادر تسيل على صخور القسطل، وكانت جثث النساء والأطفال تُلقى في آبار دير ياسين.
>
> الذي حدث بين ٦ ـ ١١ نيسان / أبريل هو أنْ استشهد عبد القادر وسقطت القسطل ففتحت طريق القدس في ٨ نيسان / أبريل وسقطت دير ياسين في ٩ نيسان / أبريل، وما أتى فجر ١١ نيسان / أبريل حتى أحاطت النجدات اليهودية

بجيش الإنقاذ في مشمار هايميك وبددت شمله، وتخلّف رسول الاستسلام عن الحضور!"[٤٧]

وقال بإيجاز في موضع آخر: "إن الدخول إلى فلسطين (عندما وقع) بُني على اعتبارات سياسية ولم يُبن على اجتهاد أو دراسة عسكرية."[٤٨]

بعد خمسين عاماً من مقاله الأول، نشر الخالدي كتابه: "خمسون عاماً على تقسيم فلسطين (١٩٤٧ ـ ١٩٩٧)"، ولدى قراءته لا يشعر القارئ بفارق الخمسين عاماً، بل يشعر وكأنه يعيش مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، فالمؤرخ روى عن تلك الأيام بأحداثها وتناقضاتها وأسرارها، وروى عن قادتها في الحكم والسياسة غرباً وشرقاً، وتوقف عند العلاقات الخفية والمعلنة التي تربط بينهم، والتطورات التي كان لها الأثر المباشر في تبدل السياسات، ومنها للمثال اغتيال منظمة شتيرن الإرهابية بزعامة شَمير اللورد البريطاني موين في القاهرة، وهو مَن كان صديق العمر لتشرشل، فكان اغتياله مفصلاً حاسماً في موقف تشرشل من الصهيونية.[٤٩] ومنها تطور العلاقة بين روزفلت والملك عبد العزيز منذ التقيا على البارجة في قناة السويس في ١٤ / ٢ / ١٩٤٥، إذ حاول الرئيس الأميركي إقناع الملك السعودي بالموافقة على هجرة اليهود إلى فلسطين، لكن أجوبة الملك كانت موجزة وقاطعة، ومنها، "اِعطِهم وذريتهم أراضي ومنازل الألمان الذين اضطهدوهم." وينتهي اللقاء بتعهّدين للرئيس: أولهما أنه لن يقدم أبداً على ما من شأنه أن يكون عدائياً للعرب؛ ثانيهما أن حكومته "لن تحدث أي تغيير في سياستها الأساسية في فلسطين، من دون التشاور الكامل والمسبق مع كل من اليهود والعرب." وهذا ما دعا المؤرخ أن يتساءل: "ماذا لو بقي روزفلت حياً إلى ما بعد الحرب؟"[٥٠]

وكان ترومان هو الرئيس الذي جاء بعد الحرب، والجديد الذي ألقى المؤرخ عليه الضوء هو الأسباب الخفية التي جعلت ترومان يستحق لقب النصير الأول للصهيونية بلا منازع، إضافة إلى التعامل الفوقي الذي كان يمارسه هذا الرئيس الأميركي على كبار الساسة البريطانيين، فارضاً إرادته بصلف، وسِرّ ذلك منح الولايات المتحدة بريطانيا قرضاً مالياً ضخماً سنة ١٩٤١، ما أنقذها من إفلاس محتم.[٥١]

أمّا عن كيفية اتخاذ قرار التقسيم، وكل ما كان يجري في الأمم المتحدة، ساعة فساعة، ومواقف الدول دولة دولة؛ كذلك ما كان يجري على أرض فلسطين، بدءاً من الإرهاب الصهيوني، إلى الثورة ضد التقسيم، أو الحرب الأولى، فهو مَن روى ذلك بمعرفة الخبير المطّلع، وبأسلوبه المميّز، السهل الممتنع.

كتابه الثاني عن الحرب الثانية: "خمسون عاماً على حرب ١٩٤٨: أولى الحروب الصهيونية العربية" صدر بعد أشهر من كتاب التقسيم. وهو كتاب دقيق ومتكامل عن الحرب، كان من أهم مصادره مذكرات القادة السياسيين والعسكريين، المنشورة منها وغير المنشورة، والتقارير العسكرية، والخرائط الدقيقة، وهو مَن كان على صلة وثيقة بالكثير من السياسيين العرب، كما أنه التقى الكثيرين أيضاً للاطلاع منهم على خفايا الحرب، فسافر إلى بغداد في الخمسينيات والتقى إسماعيل صفوت باشا وصائب الجبوري من العسكريين، كما أنه على

صعيد المصادر الصهيونية فقد رجع إلى أهمها.

وأعترف، بأنه أدهشني سرده لتحركات الجيوش العربية، كلّ على حدة، وسرد المعارك بتفاصيلها، والتعليق عليها كخبير عسكري مطلع، ويمكن إيجاز رأيه بأن العلة الأساسية كانت في غياب القيادة الموحدة، وهذا ما أعطى عليه براهين عملية لا تحصى، ومنه نقتبس:

> [....] إضافة إلى الاعتبارات العسكرية التي سبق أن ذكرناها، من فشل تام في إيجاد القيادة العامة العربية الموحدة، إلى شحّ متزايد في العتاد بسبب الحظر، إلى نقص في الأعداد بالنسبة إلى طول الجبهات وخطوط المواصلات، إلى تعاظم قوات العدو عدداً وسلاحاً ثقيلاً وتنظيماً وثقة بالنفس وتصميماً ووضوحاً في أولوياته الهجومية واتجاهاتها الرئيسية، إضافة إلى كل هذا استفحلت الشكوك بين العواصم العربية واكتسبت أبعاداً مكثفة مضاعفة شكلت حاجزاً نفسياً منيعاً حال دون الحد الأدنى من التنسيق العملاني بين جيوشها [....].[٥٢]

هذان الكتابان مرجعان أساسيان لكل مَن يتابع نكبة فلسطين ومسيرة الصراع العربي ـ الصهيوني. ونتوقف عند مرجع آخر عن دير ياسين.

مجزرة دير ياسين، الرمز الأكثر شهرة في تاريخ الإرهاب الصهيوني ما غابت عن المؤرخ المقدسي في أية مرحلة من مراحل حياته، حتى تمكن سنة ١٩٩٩، من إصدار كتابه الشهير: "دير ياسين: الجمعة، ٩/٤/١٩٤٨".[٥٣] لماذا تأخر؟ الواقع أنه كان على المؤرخ أن ينتظر خمسين عاماً حتى يتمكن من الحصول على الوثائق المطلوبة، من عربية وصهيونية وغيرهما، ومن أهم الوثائق ما قدّمه أهالي القرية أنفسهم، من أسماء ومعلومات اتضح أنهم كانوا قد جمعوها في أعقاب المجزرة، وهذا ما يضفى عليها أهمية كبرى.

وابتدأ البحث من جديد بعد أربعين عاماً، فقام فريق العمل بجمع شهادات الأحياء، وساهم بعض الأهالي في رسم خريطة القرية شارعاً شارعاً، وبيتاً بيتاً، وحقلاً حقلاً، وكذلك سُجّلت جداول أسماء العائلات والضحايا، وبعد أن توفر هذا كله أصبحت الكتابة ممكنة، وكان أن تحوّل التاسع من نيسان / أبريل ١٩٤٨ بقلم الخالدي من مجزرة رهيبة إلى نص تاريخي موثّق، ومسرحية واقعية، ومرجع أكاديمي، ما غابت عن خرائطه أزقة القرية وبيوتها وشوارعها ومزارعها وأشجارها، وما غابت عن فصوله الأحداث ساعة فساعة، وليس أروع من حكاية بطولات أهالي القرية، وهي الحكاية التي طغت عليها في تاريخ فلسطين أهوال المجزرة، لكن في هذا الكتاب ما يثبت بطولة دير ياسين، والتي لولاها لكانت المجزرة أشد عنفاً وأكثر ضحايا.

وفي هذا الكتاب أيضاً لا يطّلع القارئ على تسلسل الأحداث فحسب، بل بإمكانه أن يعيش الأحداث وهو يتابعها بعينيه من بيت إلى بيت على خريطة القرية، فأرقام البيوت على الخريطة هي الأرقام المدوّنة في النص. هذه خريطة تظهر فيها الزواريب، وأماكن البيوت، وكذلك الحقول والأشجار على أنواعها. هذه دير ياسين.

في الفصل الأول يسلّط المؤلف الضوء على أسباب تفرّد مجزرة دير ياسين بتلك الشهرة الفائقة والمكانة الرمزية التي لا تضاهى، على الرغم من إقدام الصهاينة على ارتكاب المجازر العديدة وتدميرهم لأكثر من أربعمائة قرية في السنة نفسها، وهو يقول:

> [....] إن قوات الوكالة اليهودية (الهاغانا والبلماح) دمّرت بصمت مئات القرى [....] بعيداً عن الضجيج الإعلامي والرقابة الصحافية، وهو صمت لم يَشُبْه سوى دويّ الانفجارات وأنين الضحايا الأبرياء. بيد أن لدير ياسين أبعاداً أُخرى، في نظرنا؛ فهي مثال صارخ لرياء القيادة الصهيونية السياسية والعسكرية بالنسبة إلى "طهارة" سلاح دنّسته داخل إسرائيل وخارجها، وقبل دير ياسين وبعدها. وما جرى في دير ياسين في ذلك اليوم إنْ هو إلاّ اختزال لمجمل ما حدث في سائر القرى الأربعمئة ونيف الشهيدة. ودير ياسين إنما هي النموذج للصدام بين المنظمات الدولية الصهيونية ذات الطاقات المادية والبشرية الضخمة، وبين أرباب عائلات قروية متواضعة يدافعون عن عقر الدار وعتبتها، وعن الأم والزوجة والبنين والبنات والأحفاد. ودير ياسين غدت، إلى جانب هذا وذاك، رمزاً لتقصير القيادات الفلسطينية والعربية الفادح والفاضح نتيجة سماحها للعدو باستفراد قرى فلسطين قرية قرية، ومدنها مدينة مدينة، سماحاً لا عذر له ولا غفران.[٥٤]

"دير ياسين..."، رائعة الخالدي، لا تنتهي بوصف المأساة، لكنها تبتدئ من نهايتها بوصف ما كان يجري بين القادة اليهود أنفسهم؛ تسجّل أكاذيبهم، وتحدد مسؤولياتهم، وتثبت ضلوع بيغن وشمير وغيرهما بالمجزرة. ويبقى هذا الكتاب نموذجاً لكل مؤرخ في العالم يبحث عن موضوع مشابه.

VI ـ النهج التوثيقي

صدر كتاب *From Haven to Conquest* أول مرة بالإنجليزية، سنة ١٩٧١، وهو كتاب ضخم يتألف من أكثر من تسعمائة صفحة، فلاقى استقبالاً منقطع النظير بين الأساتذة والمفكرين في العالم الغربي، وخصوصاً المتابعين منهم للصراع العربي ـ الإسرائيلي، والعنوان الفرعي للكتاب يوضّح مضمونه: "قراءات في الصهيونية ومشكلة فلسطين حتى ١٩٤٨".[٥٥]

يحتوي الكتاب على مقدمة مطولة تُعتبر من أهم ما كتبه المؤرخ في القضية الفلسطينية، فهي مرجع بحد ذاتها. ومن المقدمة أولاً، ومن النصوص الثمانين المختارة التي يتألف منها الكتاب ثانياً، يتمعّن القارئ في جذور الصراع على أرض فلسطين، وبدايات الصهيونية وقيام إسرائيل، وتاريخ شعب فلسطين، وأسباب نكبته وتهجيره. وتعكس النصوص، التي اختيرت بمنتهى العناية، الثقافة الواسعة للخالدي، ونهجه الأكاديمي الرفيع، وحسّه

التاريخي العميق. وتتوزع النصوص على أربعة أقسام، فالقسم الأول منها يمتد زمنياً من العهد الكنعاني إلى وعد بلفور، بينما تشتمل الأقسام الثلاثة الباقية على المرحلة الممتدة من وعد بلفور حتى ١٩٤٨.

لا قاعدة هناك لاختيار النصوص، باستثناء قاعدة الترابط الجذري بين كل منها وموضوع الكتاب. أمّا نوعيتها فالكثير منها وثائق، كبرنامج مؤتمر بال، أو خطة دالت، والبعض منها فصول أو صفحات في كتاب، كالفصل عن "صلاح الدين يدخل القدس" لستانلي لين بول،[٥٦] أو الفصل عن "الموساد..." لجون وديفيد كمحي،[٥٧] وهناك مقالات وفصول من مذكرات وحوارات، بالإضافة إلى التقارير التي كان من أبرزها تقرير جاك دي رينيير، رئيس بعثة الصليب الأحمر الدولي في فلسطين، عن مجزرة دير ياسين.[٥٨] وتبقى نصوص لا تخطر ببال أحد، ونعطي مثالاً عليها نصّاً في غاية الأهمية للمهاتما غاندي عن رأيه في هجرة اليهود إلى فلسطين، كتبه في ٢٦ / ١١ / ١٩٣٨، بعد أن تلقّى رسائل عديدة من أصدقائه يلحّون عليه لمعرفة رأيه. وكان غاندي عظيماً في رأيه هذا، كما كان عظيماً في كفاحه، ولا بد من عرضه بإيجاز لتميّزه عن سائر الآراء.

أبدى غاندي عطفه الشديد على اليهود الذين اضطُهدوا في ألمانيا، ثم أردف بأن تعاطفه معهم لا يعمي بصره عن متطلبات العدالة، وتساءل لماذا لا يكون اليهود مثل شعوب العالم فيتخذون وطناً لهم حيث ولدوا وحيث يكسبون رزقهم؟ فلسطين للعرب، كما أن إنجلترا للإنجليز، أو فرنسا للفرنسيين. ومن المؤكد أنها جريمة بحق الإنسانية إنقاص عدد السكان العرب من أجل أن يعود اليهود إلى فلسطين. إن مفهوم فلسطين في التوراة ليس جغرافياً، ولكن إن كان لا بد من أن ينظر اليهود إلى فلسطين الجغرافية كوطن لهم، فمن الخطأ أن يدخلوها في حماية البنادق البريطانية، إذ إنهم لا يستطيعون البقاء في فلسطين إلاّ بإرادة العرب، وهناك مئات الوسائل للتفاهم مع العرب، لكن فقط، إذا استغنوا عن الحراب البريطانية؛ لكنه يبدو أنهم يشتركون مع بريطانيا في سلب حقوق شعب لم يفعل شيئاً ضدهم.

واقترح غاندي حلاً حين قال بأنه إن كان من الممكن شنّ حرب باسم الإنسانية ومن أجلها، فالحرب ضد ألمانيا لمنع الاضطهاد ضد عرق بأكمله، ستكون مبررة؛ غير أنه استدرك بأنه لا يؤمن بالحرب.[٥٩]

وكما طرح غاندي فكرة معاقبة ألمانيا، كان الملك عبد العزيز هو الذي اقترح حلاً بإعطاء اليهود منازل الألمان، كما مر معنا في حواره مع الرئيس روزفلت، ونقرأ في هذا المجلد الحوار التاريخي الذي دار بين الملك العربي والرئيس الأميركي، والذي كان سبباً في تمتين الصداقة بينهما.[٦٠]

أجمع كبار الناقدين على أهمية هذا المرجع، وأجمعوا على فرادته وتميّزه، إلاّ إنهم لم يُجمعوا على تصنيف مادته، بعضهم قال عن النصوص إنها "قراءات"، وأحدهم قال إن هذا الكتاب وثيقة من المقتطفات الأدبية المختارة، وغيره وصفه بأنه أشبه بندوة تشمل مجموعة من الآراء الشاملة، غير أن ألبرت حوراني تميّز عن الجميع بقوله إنه "مجموعة من الوثائق التي لا غنى عنها لهؤلاء الذين يريدون أن يتفهموا بعض الجوانب الهامة لقضية فلسطين." ومؤرخ كالحوراني يعلم جيداً كم يوجد بين هذه الوثائق من مقالات وأبحاث وفصول في

موسوعات وكتب، لكنه شمل النصوص جميعها بكلمة "الوثائق" لإدراكه العميق بأن كل نص يحتويه هذا المرجع له أهمية الوثيقة. هكذا رؤية الخالدي، وأيضاً رؤية الحوراني.

والحقيقة أن صاحب الكتاب قام باختيار النصوص بناء على مخطط شامل من عهد الكنعانيين حتى زمن النكبة؛ وهكذا شملت النصوص / الوثائق مختلف المواضيع، ومَن يقرأ هذا المرجع الغني، يعلم أن صاحبه قد تطرّق من خلال النصوص الوثائقية إلى أبرز المحطات التاريخية، وهذا ما يجعله كتاباً نموذجياً ليس بالنسبة إلى فلسطين تاريخاً وعدواناً صهيونياً ونكبةً فحسب، بل هو نموذجي أيضاً في توافقه ومصطلح "النهج التوثيقي".

عاد الخالدي إلى نهجه في التاريخ المستند إلى الوثائق في الذكرى الخمسين لحرب ١٩٤٨، فنشر مجموعة من الوثائق عن الحرب الأولى ما بعد التقسيم في مجلة *Journal of Palestine Studies* ، والوثائق التسع التي اختارها لم تكن قد نُشرت بعد بالعربية أو بالإنجليزية باستثناء واحدة منها، وهي الصفحات التي اختارها عن "سقوط القسطل واستشهاد عبد القادر" من مذكرات بهجت أبو غربية، وهو مَن كان شاهد عيان، وأمّا الوثائق جميعها فتعكس وجهات نظر متعددة عن الحرب منذ نهاية شهر آذار / مارس حتى نهاية الانتداب في ١٥ أيار / مايو.[٦١]

الوثيقة الأولى تقرير يتناول الوضع العسكري في فلسطين والمقارنة بين قوات وقدرات كل من الفريقين، كتبه اللواء إسماعيل صفوت، القائد العام من قبل اللجنة العسكرية التابعة لجامعة الدول العربية، وقد أرسل اللواء تقريره هذا إلى جميل مردم بيك، رئيس الوزراء السوري، ورئيس لجنة فلسطين في الجامعة العربية، بتاريخ ٢٣ / ٣ / ١٩٤٨. أهمية التقرير تتضح من مضمونه، فاللواء كان على اطلاع تام بما كان لدى العدو، وهذا يخالف النظرة الشعبية السائدة تجاه القيادة العسكرية العربية الرسمية، من أن العرب لم يكونوا على علم بما لدى العدو، فهذا التقرير يوضح أن القيادة العسكرية كانت تعلم، غير أن القيادة السياسية لم تكن تريد أن تعلم، ولم تلبِّ مطالب إسماعيل صفوت. وتلك مسألة أُخرى.

آن الأوان لإنصاف الرجال الشرفاء الذين قاموا بواجبهم. وهذا ما فعله الخالدي تجاه اللواء إسماعيل صفوت.

أمّا الوثائق الباقية فهي تتعلق بسقوط كل من القسطل وحيفا ويافا، وقد قام المؤرخ بشرح مستفيض في تقديم كل منها، ما يجمع بين التأريخ والتوثيق على أرفع مستوى. ومَن يتابع دراسات الخالدي ومقالاته يجد العديد منها على هذا النهج؛ وقد مرّ معنا سابقاً في مقاله عن "سقوط حيفا" كيف قام بالدمج بين النهج التأريخي والنهج التوثيقي.

VII ـ المؤرخ الإنسان

سأله صديق: "متى سنقرأ مذكراتك؟" فنظر إليه بهدوئه المعتاد، وباستغراب، "تقول مذكراتي؟ لا... مستحيل الآن. أنا مشغول بمراجعة مذكرات رشيد الحاج إبراهيم. هذه مخطوطة مدهشة."

والواقع أن رجل حيفا ورئيس لجنتها القومية كانت قد ضاعت منه أوراقه كلها في حيفا،

وما كان أمامه في الخمسينيات سوى الكتابة من الذاكرة والاستعانة بما تيسّر من صحف. ولم يشأ الخالدي المساس بالمخطوطة، لكنه أنقذها بمقدمة من تسعين صفحة، تابع فيها المذكرات، وراح يتوسّع حيث النقص في الأصل، ويختصر حين يكون الأصل وافياً. وهكذا أضحت المقدمة كتاباً.[٦٢]

وسأله صديق آخر، مرة أُخرى: "أصدقني القول. أين وصلت في مذكراتك؟"

وكان لا بد من لحظات صمت قبل أن يجيب بصوته الهادئ الواثق: "المشروع بين يديّ مهم جداً. إنه إعادة نشر مجلدات عارف العارف عن النكبة."

ولم يستمع الخالدي لرجاء صديقه، بل استمرّ مع العارف الذي كان لمجلداته في حلّتها الجديدة مقدمة جديدة أيضاً.[٦٣]

ومرة أُخرى، سأله صديق ـ كالعادة ـ عن مذكراته، فابتسم هذه المرة وكأنه يمتلك الجواب الذي لا يُرد: "وكيف أترك مذكرات محمد عزة دروزة؟ إنني أقوم بمراجعتها، فيها كنز من المعلومات." وارتفع صوت الصديق: "لكنها ستة أجزاء ضخمة؟" وردّ الخالدي كمَن لا يريد النقاش: "أنا أعمل على انتقاء المقتبسات الأهم لإصدارها في مجلد واحد، فهكذا يتعرف القراء على تاريخ فلسطين وعلى شيخ المؤرخين."[٦٤]

وكان وعد من الخالدي لهذا الصديق بأنه سوف يعمل على مذكراته حالما ينتهي من مشروع دروزة. غير أنه لم يعترف له بالمفاجأة التي لا يتكلم عنها كثيراً، وهي مشروعه الخاص الذي أصبح شبه جاهز، والذي ينوي العودة لاستكماله قبل المذكرات. إنه "معجم أعيان فلسطين في القرن العشرين"، الذي يحتوي على سيرة أكثر من ألفي شخصية من أعيان بلاده، فهو مَن اختارها وكتب عنها، كي يُظهر من خلالها الوجه الحضاري لشعبه.

هذا هو الخالدي المسكون بحب فلسطين وشعب فلسطين. الكتّاب والمؤرخون عادة لا يمشون على دربه، فالواحد منهم يفضّل الانصراف إلى تأليف كتاب خاص به يُضاف إلى رصيده العلمي. ومن المؤكد أن الخالدي يعرف حسنات هذا الدرب، غير أنه ـ وهو المؤرخ صاحب الرصيد الكبير ـ لا يطمع بالمزيد، وما يعنيه حقاً هو إضافة كتب قيّمة إلى المكتبة الفلسطينية، هو الباحث عن المخطوطات، وهو باعث الكتب القديمة التي يعلوها الغبار إلى الحياة من جديد.

أمّا المؤرخ الإنسان، فيصعب الفصل فيما بينهما، إذ إن في وحدتهما حقيقة الأستاذ المتواضع، وما بين السطور التي تتحدث عنهما معاً ـ أدناه ـ نستلهم دربه:

- هو مَن يتمتع بثقافة عالية وفهم عميق للحضارة الغربية يوازي فهمه للحضارة الشرقية والعربية الإسلامية التي نشأ فيها.
- هو من القلائل الذين طالعوا المؤلفات الكلاسيكية العالمية، ومن الذين يطالعون بشكل متواصل الدراسات الحديثة في أبرز القضايا العالمية.
- هو مَن يتقن عدة لغات في مقدمها العربية والإنجليزية، وهو مَن تضاهي مؤلفاته بالإنجليزية مؤلفات أبنائها.
- هو البارع في الكتابة الشمولية، كما هو بارع في الكتابة المتخصصة بموضوع

واحد، أليس هو صاحب "كي لا ننسى" وصاحب "أرض السفارة الأميركية في القدس"؟

- هو مَن يتمتع بفهم عميق للصهيونية وتطورها فكرة وحركة ومؤسسات وعصابات.

أليس هو مَن وضع حداً للافتراءات الصهيونية؟

- هو الراعي الأمين لتاريخ النضال العربي الفلسطيني المعاصر.
- هو من بُناة مؤسسة الدراسات الفلسطينية الأوائل، والحقيقة أنه لولاه، لما عاشت المؤسسة واحة خضراء للتائهين الباحثين عن فلسطين.
- هو المرجع الأول في القضية الفلسطينية، فهو مَن يطمئن إليه الباحثون أينما كانوا في بقاع الأرض، فهو يعطيهم المشورة ويقف إلى جانبهم.
- هو القدوة للباحثين، هو صاحب النهج الأكاديمي الفريد، فهو لا يقيد مواضيعه بقوالب متعارف عليها، ذلك بأن الموضوع هو الأساس، والموضوع يفرض النهج الملائم له.
- هو صاحب القدرة الفائقة على التحليل العقلاني بتوازن مذهل مع عاطفته وعقيدته.
- هو من الذين يكنّون احتراماً للكلمة بلا حدود. اهتمامه بكتابة مقدمة لكتاب لا يقل عن اهتمامه بكتابة الصفحات الأخيرة من كتاب له استغرق أعواماً من عمره.
- هو المؤرخ الصادق كمَن يؤدي شهادة في محكمة.
- هو مؤرخ فلسطين شعباً وقضية. ■

المصادر

١ Arnold Toynbee, *A Study of History : The First Abridged One-Volume Edition Illustrated* (New York: Weathervane Books, 1979), p. 118.

٢ *The History of Herodotus*, Translated by George Rawlinson, 24th printing, Great Gooks of the Western World, no. 6 (Chicago: Encyclopaedia Britannica, 1982), Book II, Ch. 106. P. 69.

٣ Ibid., Book II, Ch. 104, p. 69.

٤ Ibid., Book III. Ch. 5. P. 90.

٥ Walid Khalidi, *Before their Diaspora: A Photographic History of The Palestinians 1876- 1948* (Washington D.C. : 1982).

٦ وليد الخالدي، "قبل الشتات: التاريخ المصوّر للشعب الفلسطيني ١٨٧٦ ـ ١٩٤٨" (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٧)، ص ١٦.

٧ كان اللورد شافتسبري (١٨٠١ ـ ١٨٨٥) نصيراً للقضايا الصهيونية، وقد تقدّم بمشروع إلى وزارة الخارجية البريطانية لاستيطان اليهود في فلسطين، لكنه فشل. وكتب في مذكراته متسائلاً عن القوة الدولية التي يمكن إعطاؤها فلسطين، وردّ على تساؤله بنفسه: "[....] هناك بلد بلا شعب، والله يوجهنا الآن بحكمته ورحمته نحو شعب بلا وطن."
Albert M. Hyamson, "British Projects for the Restoration of Palestine - 1918", pp. 139-140, as quoted from Edwin Hodder, *Life of Lord Shaftesbury*, vol. 1, p. 478.

٨ Martin Gilbert, "Jerusalem - Whose City?", in *Whose Jerusalem*. p.2 (visited 23/11/1999), http://www.cdn-Friends-icej.ca

٩ الخالدي، "قبل الشتات"، مصدر سبق ذكره، ص ٣٠.

١٠ المصدر نفسه، ص ٢٨.

١١ المصدر نفسه.

١٢ راجع: المصدر نفسه، ص ٢٧ـ ٣٥.

١٣ "Recent Books: Palestine to 1948", Reviewed by Benny Morris, *Journal of Palestine Studies*, vol XXII, no. 1 (Autumn 1992) p 111.

١٤ Walid Khalidi, "Benny Morris and before their Diaspora", in *Journal of Palestine Studies*, vol XXII, no. 3 (spring 1993), pp. 114-115.

١٥ Walid Khalidi, "Plan Dalet: The Zionist Blueprint for the Conquest of Palestine", *Middle East Forum*, vol. 37, no. 9 (Nov. 1961), pp. 22- 28.

١٦ Ibid. pp. 22- 23.

١٧ Walid Khalidi, "Plan Dalet: Master Plan for the Conquest of Palestine", in *Journal of Palestine Studies*, vol. XVIII, no. 1 (Autumn 1988), Issue 69, p. 4.

١٨ دانيال بن ـ سيمون، "الاحتلال على أريكة العالم النفساني"، "دافار ـ الملحق الأسبوعي"، العدد ٣٣ (١٢/٨/١٩٨٨)، ص ٦ ـ ٧، نقلاً عن: "نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية"، ص ٦٦٨ ـ ٦٦٩.

١٩ وليد الخالدي، "كي لا ننسى: قرى فلسطين التي دمّرتها إسرائيل سنة ١٩٤٨ وأسماء شهدائها" (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٧)، ص xxxvii ـ xxxviii.

٢٠ المصدر نفسه، ص xxxviii.

٢١ Walid Khalidi (Editor), *All that Remains: The Palestinian Villages Occupied and Depopulated by Israel in 1948* (Washington D.C.: Institute for Palestine Studies, 1982).

٢٢ وليد الخالدي، "أرض السفارة الأميركية في القدس"، ترجمة سميرة نعيم خوري (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠٠). (صدر الكتاب أولاً باللغة الإنجليزية، سنة ٢٠٠٠).

٢٣ راجع: المصدر نفسه، "اتفاقية إيجار الأرض وشرائها"، ص ٣٥ ـ ٤٧.

٢٤ راجع: المصدر نفسه، "قانون نقل السفارة إلى القدس" (القانون العام ١٠٤ ـ ١٠٥): (وافق عليه مجلس الشيوخ الأميركي في ٢٣ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٥، ومجلس النواب الأميركي في ٢٤ تشرين الأول / أكتوبر ١٩٩٥)، ص ٥٤ ـ ٥٩.

٢٥ المصدر نفسه، ص ١.

٢٦ المصدر نفسه، ص ١٩.

٢٧ راجع: المصدر نفسه، ص ١٩ ـ ٢٤.

٢٨ المصدر نفسه، ص ٢٣.

٢٩ المصدر نفسه، ص ٢٥ ـ ٢٦.

٣٠ وليد الخالدي، "القدس مفتاح السلام"، المحاضرة الرئيسية في مؤتمر عن القدس عُقد في بيروت بإشراف اتحاد المهندسين العرب، بتاريخ ٨ ـ ١١ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٩٩. نُشرت في "القدس الآن: المدينة والناس، تحديات مستمرة" (بيروت: اتحاد المهندسين العرب، ٢٠٠٠)، ص ٦٢.

٣١ Walid Khalidi, "Why Did the Palestinians Leave? An Examination of the Zionist Version of the Exodus of '48", *Middle East Forum*, vol 35, no. 7 (July 1959), pp. 21- 24, 35.

٣٢ Ibid., pp. 35.

٣٣ Ibid., pp. 21, 35.

٣٤ Ibid., pp. 24.

٣٥ Ibid., p. 23.

٣٦ Ibid., pp. 22, 23, 24.

٣٧ Ibid., pp. 22 – 23.

٣٨ Ibid., pp. 35, 24.

٣٩ Walid Khalidi, "The Fall of Haifa", *Middle East Forum*, vol. 35, no. 10 (December 1959), pp. 22-32.

٤٠ Ibid., pp. 23 – 25.

٤١ Ibid., pp. 24 – 25.

٤٢ Ibid., pp. 25 – 32.

٤٣ Walid Khalidi, "The Fall of Haifa Revisited", *Journal of Palestine Studies*, vol. XXXVIII, no. 3 (Spring 2008), pp. 31- 32.

٤٤ Ibid., pp. 55 – 56.

٤٥ Major R. D. Wilson, *Cordon and Search*; Menachem Begin, *The Revolt*; Harry Levin, *Jerusalem Embattled*; Jon Kimche, *Seven Fallen Pillars*; Sacher, *The Establishment of the State of Israel*; Arthur Koestler, *Promise and Fulfilment*.

٤٦ وليد الخالدي، "سقوط فلسطين"، "الثقافة العربية"، مجلد ١، العدد ١ (يونيو ١٩٥٧)، ص ٥١.

٤٧ المصدر نفسه، ص ٥٣.

٤٨ المصدر نفسه، ص ٥٤.

٤٩ وليد الخالدي، "خمسون عاماً على تقسيم فلسطين (١٩٤٧ ـ ١٩٩٧)"، (بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٩٨)، ص ٣١ ـ ٣٢.

٥٠ المصدر نفسه، ص ٤٠ ـ ٤٢.

٥١ المصدر نفسه، ص ٤٣ ـ ٤٦.

٥٢ وليد الخالدي، "خمسون عاماً على حرب ١٩٤٨: أولى الحروب الصهيونية ـ العربية "(بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٩٨)، ص ٩٣.

٥٣ وليد الخالدي، "دير ياسين: الجمعة، ١٩٤٨/٤/٩" (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٩).

٥٤ المصدر نفسه، ص ٥ ـ ٦.

٥٥ Walid Khalidi, Editor with an Introduction, *From Haven to Conquest: Readings in Zionism and the Palestine Problem until 1948*, 2nd printing (Washington: The Institute for Palestine Studies, 1987).

٥٦ "To Save with Pity – Saladin enters Jerusalem, 1187", in Stanley Lane-Poole, "Saladin And the Fall of the Kingdom of Jerusalem", cited in Ibid., pp. 49-55.

٥٧ "The Mossad Machine – Confounding Military Intelligence 1946- 1947" in Jon and David Kimche, "The Secret Roads: The Illegal Migration of a People", cited in Ibid., pp. 615- 623.

٥٨ Jacques De Reynier, "Deir Yassin: April 10, 1948", cited in Ibid., pp. 761- 766.

٥٩ Mahatma K. Gandhi, "The Jews in Palestine", cited in Ibid., pp. 367- 370.

٦٠ "F.D.R .Meets Ibn Saud: The Conference and its Anticlimax 1945", from William A. Eddy, "F. D. R. Meets Ibn Saud", cited in Ibid., pp. 509- 513.

٦١ Walid Khalidi, "Selected Documents On The 1948 Palestine War", in *Journal of Palestine Studies*, vol. XXVII, no. 3 (Spring 1998), pp. 60- 105.

٦٢ رشيد الحاج إبراهيم ١٨٩١ ـ ١٩٥٣ (مذكرات)، "الدفاع عن حيفا وقضية فلسطين"، تقديم وليد الخالدي (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠٥).

٦٣ عارف العارف، "النكبة: نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود ١٩٤٧ ـ ١٩٤٩"، تقديم وليد الخالدي، الطبعة الثانية، ثلاثة أجزاء (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠١٢).

٦٤ في قائمة المنشورات ١٩٦٣ ـ ٢٠١٣ لمؤسسة الدراسات الفلسطينية، نقرأ في لائحة الكتب التي يُتوقع صدورها خلال سنة ٢٠١٣، ص ٩٥: "مذكرات محمد عزة دروزة ١٨٨٧ ـ ١٩٨٤" (مختارات)، تأليف: محمد عزة دروزة، إعداد وتقديم: وليد الخالدي.